معاني الكاف واستعمالاتها في القرآن الكريم

دراسة نحوية دلالية

د / آمال سليمان أحمد الدروجي(*)
جامعة الزنتان – كلية التربية بيفرن

ملخص:

البحث دراسة نحوية دلالية للكاف وبعض استعمالاتها في السياق القرآني، وينقسم إلى قسمين رئيسين ؛ هما: كاف التشبيه وكاف الخطاب، ويتناول القسم الأول خلاف النحاة حول كاف التشبيه، وكونها اسمًا يدل على التشبيه بمعنى(مثل) ومجرورها مضاف إليه، أو أنها حرف جر وما بعدها اسم مجرور، ثم دراسة معاني الكاف واستعمالاتها في القرآن الكريم، وتحليل بعض المواضع التي ذهب العلماء في تفسيرها إلى أن الكاف قد تأتي لمعانٍ أخر غير التشبيه، كوقوعها زائدة دالة على التوكيد، أو دالة على التعليل، أو كونها مع مجرورها في كلمة(كذلك) وصلة تربط الكلام السابق باللاحق، مساوية لحرف العطف في الانتقال من موضوع إلى آخر أو غير ذلك. وفي القسم الثاني كاف الخطاب، وتنقسم إلى قسمين: كاف الخطاب الاسمية، وهي ضمير النصب والجر المتصل، وهذا من أهم استعمالاتها، ثم كاف الخطاب الحرفية، وعرض بعض استعمالاتها، ودخولها في بعض الكلمات المتفاوتة في استعمالها في القرآن الكريم كثرةً وقلةً، كالمستعملة في نحو:(أرأيتك)، واللاحقة لأسماء الإشارة إذا كان المشار إليه بعيدًا، مع مناقشة آراء النحاة والمفسرين للقرآن، في بعض تلك الاستعمالات، وتحليلهم لتلك النصوص، وفي الخاتمة بعض التوصيات وأهم النتائج التي أسفر عنها البحث.

الكلمات الدالة: الاستعمال القرآني للكاف – معاني الكاف عند النحاة والمفسرين – دلالة الكاف – كاف التشبيه – كاف الخطاب

Abstract:

the researsh is a semantic grammatical study of al- kaf and some of its uses the quranic contexts. The first section deals with the grammarians ‘ disagreement about the sufflcincy of the analogy. then its meanings and e uses in the quranic context. And an analysis of some of the places that scholars have interpreted as saying that al-kaf has meanings other than simile.as evidence of

(*) Email:

reasoning or confirmation or being redundant or otherwise. In the second section, the speech is sufflcient. it is nominal and literal. He presented their uses in the holy qur'an with a discussion of the opinions of grammarians and commentators of the qur'an on of those uses, and in the conclusion some recommendations and the most important result.

Keywords: uses of kaf – qur'anic use of kaf – the signiflcance of al-kaf for the commentators and grammarians – sufflcient warning – speech is sufflcient – kaf meanings

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد: فقد نشأ الحديث عن معاني الحروف ودلالتها في رحاب القرآن الكريم عندما كان المفسرون يفصّلون المعاني المختلفة للأداة الواحدة في النّصوص القرآنية وقد تعدّدت الكتابات في بيان معاني الحروف والاستشهاد على هذه المعاني من خلال الآيات القرآنية والشواهد الشعرية وكلام العرب، وقد حاولت في هذا البحث أن أقف على دلالة الكاف ومعانيها في القرآن الكريم بخاصة من خلال بعض الآيات القرآنية معتمدة على ما فسر به العلماء هذه الآيات وما وضعوا لهذه الكلمة من المعاني.

وكنت قد توقفت عند دراستي لأسماء الإشارة في السياق القرآني في أطروحة الدكتوراه عند دلالة الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة، فكان ذلك دافعًا لجعل هذه الكلمة موضوعًا مستقلًا للبحث يتم فيه التوسع في دراستها وتسليط الضوء على أبرز استعمالاتها في القرآن الكريم ، فأخذت أبحث عن باقي المعاني السياقية للكاف، فوجدتني أقسم الدراسة إلى قسمين رئيسين هما؛ القسم الأول: كاف التشبيه، والقسم الثاني: كاف الخطاب، متعرضة في الأثناء إلى ما يطرأ عليهما من معانٍ سياقية وآراء النحاة واختلافهم في اسميتها أو حرفيتها، ودلالتها، مستعينة بآراء المفسرين والمعربين للقرآن الكريم في عدد من مواضع استعمالها في القرآن الكريم، مع محاولة ترجيح ما يظهر لي أنه الأنسب للسياق من تلك الآراء المختلفة في ظاهرها، المتفقة في جوهرها اتفاق علمائنا الأجلاء على اختلاف عصورهم ومواطنهم على شرف هذه اللغة وتفوقها على لغات العالم في فصاحتها وبيانها ؛ لأنها كما ذكر الرافعي " بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالدًا عليها فلا تهرم ولا تموت؛ لأنها أعدت من الأزل فلكًا دائرًا للنيرين الأرضيين العظيمين(كتاب الله وسنة رسوله)– صلى الله عليه وسلم–، ومن ثَمَّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذت السحر"[1]، ولا أدعي أني قلت كل ما ينبغي أن يقال في هذا الموضوع، ولكن آمل أن أكون قد وفقت في عرض صورة مناسبة عنه، وقد دعتني بعض المواضع إلى الوقوف عندها أكثر من بعض لما رأيته من اختلاف العلماء وتعدد آرائهم حولها، فكان حظها من التحليل والتأمل مضاعفًا، لعلي أجد فيها جانبًا يمكن من خلاله إضافة لمسة خاصة بي أنال بها شرف الإسهام في إثراء المكتبة العربية الإسلامية، فإن

كان ذلك فهو فضل الله ومنته علي ونعمة من نعمه المتوالية، وإن يكن غير ذلك فمرجعه إلى الجهد البشري المحدود، وعسى أن يكون حسن نيتي شفيعًا لي عن أي خطأ أو تقصير، وعلى الله قصد السبيل.

القسم الأول- كاف التشبيه:

التشبيه أشهر معاني الكاف، وهو عقد مقارنة بين طرفين أو شيئين يشتركان في بعض الصفات ويزيد أحدهما على الآخر في هذه الصفات، مثل: الرجل كالأسد في قوته، وأداة التشبيه في هذه الجملة هي الكاف، و يمكن أن تكون أداة التشبيه حرفًا أو أسمًا أو فعلًا مثل: الكاف، وكأن، ومثل، وشبيه، ويشبه، ويضاهي أو يماثل... ونحو ذلك.

وتعتبر الكاف من أكثر تلك الأدوات استخدامًا في التشبيه، والاسم الذي يأتي بعدها لا يكون إلا مجرورًا، غير أن النحاة مختلفون في كونها حرف جر وما بعدها اسم مجرور بها، أم أنها اسم وما بعدها مضاف إليه، فذهب بعضهم إلى أنها " حرف ملازم لعمل الجر. والدليل على حرفيته أنه على حرف واحد، صدراً، والاسم لا يكون كذلك. وأنه يكون زائداً، والأسماء لا تزاد. وأنه يقع مع مجروره صلة، من غير قبح، نحو: جاء الذي كزيد. ولو كان اسماً لقبح ذلك، لاستلزامه حذف صدر الصلة من غير طول. ومذهب سيبويه أن كاف التشبيه لا تكون اسماً، إلا في ضرورة الشعر[2]، وذهب الأخفش ومن تبعه إلى أنها اسم في معنى(مثل) ، واحتجوا لذلك بأنها جاءت في فصيح الشعر فاعلة كقوله[3]:

أتنتهون، ولن ينهى ذوي شطط *** كالطعن، يذهب فيه الزيت، والفتل

والفاعلية لا تكون إلا في الأسماء، ومجرورة في نحو قوله[4]:

بيض ثلاث كنعاج جم *** يضحكن عن كالبرد المنهم

فالكاف هنا عندهم بمعنى(مثل) لدخول حرف الجر عليه، ولا تجر إلا الأسماء.[5] وذهب ابن جني إلى أنها تكون اسمًا إذا وقعت موقع الأسماء، وحرفًا إذا وقعت موقع الحروف، وأنه يجوز أن تكون حرفًا واسمًا، في الاختيار إذا جاءت في موضع تصلح فيه أن تكون اسمًا وأن تكون حرفًا، " وذلك نحو قولك: زيد كعمرو، فقد تصلح أن تكون الكاف هنا اسمًا كقولك: زيد مثل عمرو، ويجوز أن تكون حرفًا كقولك: زيد من الكرام، فكما أن(من) حرف جر وقع خبرًا عن المبتدأ فكذلك الكاف تصلح أن تكون حرف جر فإذا قلت: أنت كزيد وجعلت الكاف اسمًا فلا ضمير فيها كما أنك إذا قلت: أنت مثل زيد فلا ضمير في(مثل)، كما لا ضمير في الأخ ولا الابن إذا قلت: أنت أخو زيد وأنت ابن زيد "[6] غير أنه يرى أن الذهاب إلى أنها حرف في مثل ذلك أقيس الوجهين، فتكون حرفًا جارًا بمنزلة الباء واللام ؛ لأنها مبنية مثلهما، ولأنها- أيضًا- على حرف واحد، ولا أصل لها في الثلاثة فهي بالحرف أشبه، ولأن استعمالها حرفًا أكثر من استعمالها اسمًا "[7]، وهذا الرأي أقرب عندي من غيره، والذهاب إلى أنها اسم بدليل دخول حرف الجر عليها و ثبوت ذلك في الشعر وأنها في ذلك مثل(على) و(عن) عند استعمالهما اسمين للحجة نفسها، أظن أنه لا يقاس عليه، وأن ذلك الاستعمال لا يبعدها

جميعًا عن الحرفية، وأنها جاءت كذلك بعد حرف الجر حملًا على ما فيها من معنى الظروف، وقضية الحمل على المعنى شائعة ومقبولة في كثير من الاستعمالات في العربية، ولنا – إذا صح هذا الوجه – أن نقول في إعرابها: إنها حرف يفيد التشبيه مبني في محل جر حملًا على معناه ؛ لأننا نجد في ذلك وسيلة لتقليل الوجوه وبعدًا عن كثرة الاحتمالات في تصنيف الكلمة الواحدة وبخاصة في هذا العصر الذي تعالت فيه الادعاءات حول صعوبة النحو بكثرة احتمالاته وتعدد وجوهه، إذ إننا لا نجد في غير هذا الموضع ما يدعو إلى الذهاب إلى تعين اسميتها، كما إذا وقعت في موضع الفاعل أو المفعول به ؛ لسهولة تأويله بتعلقها مع مجرورها بمحذوف تكون هي صفته وقد قامت مقامه، كأن يقدر في قوله: ولن ينهى ذوي شطط، " شيء كالطعن فيكون الفاعل(شيء) المحذوف " وقد ذكر هذا الوجه ابن جني متوقعًا أن يقول به قائل، ورأى أنه وجه قبيح ولا ضرورة تدعو إليه[8]، إلا أنني أجده سهلًا ومقبولًا بلا تكلف، والله أعلم.

ودلالة الكاف على التشبيه هو أصل معانيها، ومع أن النحاة ذكروا للكاف المفردة معاني أخر، إلاَّ أنَّهم جعلوا في مقدمتها معنى التشبيه[9]، وهذا دليل على أنَّه المعنى الأصلي الذي تُفيده، فقد جرت العادة عند النحويين أن يذكروا المعنى الأول والأصلي الذي تُعرف به أداة من الأدوات النحوية، ثم يذكروا بعدها المعاني الأخرى التي تخرج إليها.

ويزخر القرآن الكريم بآيات عديدة أدَّت فيها الكاف المفردة معنى التشبيه، كقوله تعالى: " وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَم "[10] وقوله تعالى: " فأصبحت وردة كالدهان "[11]

غير أن بعض تلك المواضع حظيت باهتمام المفسرين والمعربين أكثر من بعض، لما رأوا أنها تحتمل معاني أخر غير التشبيه، كدلالتها على التعليل في نحو قوله تعالى: " واذكروه كما هداكم "[12]، أي: لهدايته إياكم، أو أنها تكون زائدة للتوكيد في نحو قوله تعالى: " ليس كمثله شيء "[13] ، و مع أن النحاة ذكروا لها بعض المعاني كدلالتها على الاستعلاء في نحو قول بعض العرب: كخير، في جواب: كيف أصبحت؟ أي: على خير، ونسبوا حكايته إلى الفراء والأخفش، [14] ، وكما ذكر في بعض المواضع التي ستأتي، إلا أن عدم ورود أمثلة لها، تدل فيها دلالة واضحة على الاستعلاء في القرآن الكريم جعلني أقتصر في الدراسة على أهم تلك الاستعمالات، وهي دلالتها على التعليل ومجيئها زائدة، أو للتوكيد.

دلالتها على التعليل:

ذكر بعض النحاة أن الكاف تأتي في بعض معانيها مفيدة للتعليل، والتعليل معنًى من المعاني التي يذكرها النحاة عندما يتحدثون عن التأثير الإعرابي والمعنوي في كلامهم، والأصل فيه أن يدل عليه بالحروف، فكان الحرف الأصلي لإفادة هذا المعنى هو اللام و ما أفاد التعليل من بقية الحروف ينوب عنه، ذلك لأن هناك من النحاة من جعل لكلّ حرف معنًى رئيسًا لا يفارقه، وإذا صحبه معانٍ أُخر أرجعوها إلى المعنى

الأصلي للحرف، ومنهم من يرى أن الحرف الواحد قد يكون لـه معانٍ متنوعة ومتعددة وذلك من باب الاتساع.[15]

وذكر هذا المعنى كثير من المفسرين والمعربين في عدد من المواضع في القرآن الكريم، ولعل أهمها ما أورده الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة[16]، وهي:

– **قوله تعالى: " واذكروه كما هداكم "**[17]

وقد اختلف المفسرون والمعربون في إعراب(كما هداكم) ومعناه على عدة أقوال، منها: القول الأول: أن تكون الكاف للتشبيه في محل نصب على أنها نعت مصدر محذوف، أي: ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة.[18]، والقول الثاني: أن تكون الكاف للتعليل بمعنى اللام، أي: اذكروه لأجل هدايته إياكم، أو جزاء هدايته لكم[19] والثالث: أن تكون الكاف في محل نصب على الحال من فاعل(واذكروه) تقديره: مشبهين لكم حين هداكم. الرابع: أن تكون بمعنى(على) دالة على الاستعلاء كقوله: " ولتكبروه على ما هداكم "[20]....[21]

وذهب الدكتور فاضل السامرائي إلى أن ما ذكر لها من معان أخرى كالتعليل الذي استدل مثبتوه بقوله تعالى: " واذكروه كما هداكم " ترجع في حقيقتها إلى معنى التشبيه، قال: " وهي للتشبيه فيما أرى، ونحن نستعمل مثل هذا التعبير في كلامنا الدارج فنقول: أحسن إلى فلان كما أحسن إليك، واصنع له خيرًا مثلما صنع إليك، و اذكره مثلما ذكرك، أي: اصنع مثل فعله، وقابله بمثل ما فعل، واعمل مشابهًا لعمله، ونحو ذلك.[22]

– **وقوله تعالى: " فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون "**[23]

آراء النحاة في إعراب هذه الآية كما في سابقتها، وذهب ابن عاشور إلى أن الكاف للتشبيه، أي: اذكروه ذكرًا يشابه ما منّ به عليكم من علم الشريعة في تفاصيل الآيات المتقدمة، والمقصود من المشابهة المشابهة في التقدير الاعتباري، أي أن يكون الذكر بنية الشكر على النعمة والجزاء، فإن الشيء المجازى به شيء آخر يعتبر كالمشابه له، ولذلك يطلق عليه اسم المقدار وقد يسمون هذه الكاف كاف التعليل والتعليل مستفاد من التشبيه، لأن العلة على قدر المعلول[24].

– **وقوله تعالى: " ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله "**[25]

والتشبيه ظاهر في هذه الآية– أيضًا–، ومعنى(كما علمه الله) أي: كتابة تشابه الذي علمه الله أن يكتبها والمراد بالمشابهة قالوا: المطابقة لا المقارنة، فهي مثل قوله: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فالكاف في موضع المفعول المطلق ؛ لأنها صفة لمصدر محذوف و(ما) موصولة....ويجوز أن تكون الكاف لمقابلة الشيء بمكافئه والعوض بمعوضه أي أن يكتب كتابة تكافئ تعليم الله إياه الكتابة، بأن ينفع الناس بها شكرًا على تيسير الله له أسباب عملها... وينشأ عن هذا المعنى من التشبيه معنى التعليل كما في قوله تعالى:(وأحسن كما أحسن الله إليك) و قوله:(واذكروا الله كما هداكم)[26]

– **وقوله تعالى:" وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا "** [27]

الكاف هنا –أيضًا– يحتمل أن تكون للتشبيه، وأن تكون للتعليل، أي: ارحمهما رحمة مثل رحمتهما لي أو ارحمهما لأجل تربيتهما لي[28] ، وجعلهما ابن عاشور شيئًا

واحدًا عندما قال: " الكاف في قوله:(كما ربياني صغيراً) للتشبيه المجازي، يعبر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف، أي: ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرًا، ومثاله قوله تعالى: "واذكروه كما هداكم " والمقصود منه تمثيل حالة خاصة فيها الإشارة إلى تربية مكيفة برحمة كاملة فإن الأبوة تقتضي رحمة الولد، وصغر الولد يقتضي الرحمة به[29]

– **وقوله تعالى: " وأحسن كما أحسن الله إليك "**[30]

الكاف هنا– أيضًا– للتشبيه، وهو يكون في بعض الأوصاف؛ لأن مماثلة إحسان العبد لإحسان الله في جميع الصفات تمتنع أن تكون، فالتشبيه وقع في مطلق الإحسان، أو تكون الكاف للتعليل، أي: أحسن لأجل إحسان الله إليك[31]

– **وقوله تعالى: "كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ "**[32]

والكاف هنا لتشبيه العلتين من قوله(لأتم) وقوله(لعلكم تهتدون)، أي: ذلك من نعمتي عليكم كنعمة إرسال محمد – صلى الله عليه وسلم– ، والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام لأتم نعمتي عليكم إتماما مثل إتمام نعمتي عليكم بإرسال الرسول صلّى الله عليه وسلّم فيكم، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا منهم، وقيل إن قوله– تعالى–: كَما أَرْسَلْنا.. إلخ متصل بما بعده، فتكون الكاف للمقابلة، أي: كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم، والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلا مني وكرما؛ فاذكروني بالشكر عليها أذكركم برحمتي وثوابي.[33]

ويلاحظ على هذه المواضع التي ساقها الشيخ عبد الخالق عضيمة – وقد ذكرها بعض النحاة – يلاحظ أنه لم يتعين في أحدها دلالة الكاف على التعليل فقط، وأن معنى التشبيه كان حاضرًا فيها جميعًا، مع اختلاف بسيط بينها في ظهور أحد المعنيين على الآخر، كما يلاحظ –أيضًا– اقتران الكاف بـ(ما) فيها جميعًا، وقد ذكر ابن هشام أن بعض النحاة قيد دلالة الكاف على التعليل بأن تكون " مكفوفة بـ(ما) كحكاية سيبويه(كما أنه لا يعلم فتجاوز الله عنه)، (ثم قال:) والحق جوازه في المجردة من(ما) نحو: " ويكأنه لا يفلح الكافرون"[34] أي: أعجب لعدم فلاحهم، وفي المقرونة بما الزائدة كما في المثال، وبـ(ما) المصدرية، [35] ، وأظن بناءً عليه أنه قد يكون صوابًا لو تم تقييد ما أطلقه النحاة من قولهم بدلالة الكاف على التعليل، وجعله خاصًّا باتصال(ما) بها دالًّا– كما ذكر ابن عاشور– على التشبيه المجازي ؛ لأن إطلاق دلالتها على التعليل يجعلها مساوية للام التعليل في جميع الأحوال، ولا يخفى عدم استقامة ذلك. كما يلاحظ أن مجيئها يكثر في سياق الطلب، ولا أظن أنها خاصة به وأن مجيئها في غيره لا يستقيم، غير أن مجيئها في مثل هذا السياق يمنح الكلام قوة تجعل المتلقي أقرب للاستجابة بتنبيهه بهذه الطريقة على وجود دواعيها بعرضها في صورة أمور تستحق ردود أفعال مشابهة لها، والله أعلم.

زيادة الكاف:

ويقصد بزيادة الحروف عند النحاة أنها زائدة من حيث الإعراب بمعنى أن الحرف الزائد إذا سقط من الكلام بقي الكلام تامًّا، ويرى أغلب العلماء أن " مجيء الحرف على

هذا النحو إنما هو لتأكيد المعنى..."[36] من ذلك على سبيل المثال – ما نجده عند الزمخشري حيث قال بزيادة(ما) في قوله تعالى: " فبما رحمة من الله لنت لهم "[37] قال: "(ما) مزيدة للتوكيد، وللدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله ونحوه: " فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم "[38]..."[39]، وقال أبو حيان بزيادة من في قوله تعالى" وما تأتيهم من آية "[40] حيث قال: " من زائدة لاستغراق الجنس ومعنى الزيادة فيها أن ما بعدها معمول لما قبلها فاعل بقوله(تأتيهم) فإذا كانت النكرة بعدها مما لا يستعمل إلا في النفي العام كانت(من) لتأكيد الاستغراق، نحو ما في الدار من أحد، وإذا كانت مما يجوز أن يراد بها الاستغراق، ويجوزأن يراد بها نفي الوحدة أو نفي الكمال كانت(من) دالة على الاستغراق، نحو: ما قام من رجل[41] وعند قوله: "فبما رحمة من الله لنت لهم " قال: و(ما) هنا زائدة للتأكيد "[42]، وغير هؤلاء كثيرون ممن قالوا بزيادة بعض حروف المعاني للتوكيد.[43]

ويرى بعضهم أن هذه الحروف تزاد لغرض صوتي يتعلق بجرس الكلام والأثر الصوتي للحرف حيث قالوا: إن حروف المعاني تزاد طلبًا للفصاحة، ولأجل تزيين اللفظ وجعله مهيّئًا لاستقامة وزن الشعر أو حسن السجع أو غير ذلك.[44]

وقد ذكر العلماء(الكاف) من حروف الجر الزائدة مستشهدين لذلك بعدد من أبيات الشعر، كقول الشاعر[45]:

..... *** فصيّروا مثل كعصف مأكول

وقول الآخر[46]:

..... *** وصاليات ككما يؤثفين

كما ذكر بعضهم أمثلة لذلك من القرآن الكريم، أشهرها:

– **قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** "[47]

قال كثير من النحاة بزيادة الكاف عندما تجتمع مع مثل كما في هذه الآية ؛ وذلك لأن الكاف و(مثل) كلتيهما تدلان على التشبيه، وخصصت الكاف بالزيادة دون(مثل) ؛ لأن الكاف حرف و(مثل) اسم، والأسماء لا تزاد، عند جمهور النحويين، وانما التي تزاد عندهم الحروف، قال ابن جني: " لا يجوز أن تكون(مثل) هي الزائدة ؛ لأنها اسم، والأسماء لا تزاد، وانما تزاد الحروف، فإذا لم يجز أن تكون(مثل) هذه الزائد، ولم يكن بد من زائد ثبت أن الكاف هي الزائد "[48] وانما ذكر أنه لابد من زائد وهو رأي كثير من العلماء غيره؛ لأنهم لما رأوا اجتماع الكاف مع مثل وكلاهما يفيد التشبيه ظن بعضهم أن ظاهر الآية يفضي إلى المحال عقلا وشرعا ؛ لأنه يقتضي نفي الشبيه عن مثل الله، ونفي الشبيه عن مثله يتضمن التسليم بوجود ذلك المثل، وهذا محال عقلا وشرعا ويُعدُّ كفرا، ولذلك وقفوا عند هذه الآية كثيرا محاولين الخروج من هذا الإشكال، حيث ذهب بعضهم إلى القول بزيادة(الكاف) – كما ذهب هؤلاء– وذهب بعضهم إلى القول بزيادة(مثل)، وذهب آخرون إلى عدم الزيادة، والمشهور عند المعربين – أن الكاف زائدة في خبر ليس، و " شيء" اسمها، والتقدير: ليس شيء مثله، قالوا: ولولا ادعاء زيادتها للزم أن يكون له مثل، وهو محال؛ إذ يصير التقدير على أصالة الكاف: ليس مثل مثله شيء، فنفى المماثلة عن مثله فثبت أن له مثلًا، لا مثل لذلك المثل، وهذا

محال تعالى الله عن ذلك.[49] وقال أبو البقاء العكبري: " ولو لم تكن زائدة لأفضى ذلك إلى المحال ؛ إذ كان يكون المعنى: أن له مثلًا وليس لمثله مثل. وفي ذلك تناقض ؛لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل وهو هو، مع أن إثبات المثل لله تعالى محال.[50] ، وذهب الزمخشري إلى أن الكاف أصلية غير مزيدة دالة على التشبيه، وإنما يقصد بها الذات على طريق الكناية، والمعنى ليس كذاته شيء، وذلك لأن العرب تُطلق المثل وتريد به الشيء نفسه فيقولون: مثلك لا يفعل كذا، ويريدون بذلك ذاتك فيكون النفي عن مثل الشخص نفيًا عن الشخص نفسه، وهو من باب المبالغة، والآيات جاءت على هذا النهج.[51] ، وجوز أبو حيان أن يراد بـ(مثله) صفته، وليس ذاته، بحمل المثل على معنى الصفة، كما في قوله تعالى: " مثل الجنة التي وعد المتقون"[52] ، أي: ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره، [53] ، وقال الرازي بعدم الزيادة في هذه الآية مع بقاء(مثل) على معنى التشبيه، معللًا بأن الله تعالى حكم " بأن مثل مثله ليس بشيء ولا شك أن كل شيء مثل لمثل نفسه، وثبت بهذه الآية أن مثل مثله ليس بشيء ينتج أنه تعالى غير مسمى بالشيء، فإن قالوا إن الكاف زائدة قلنا هذا الكلام معناه أن هذا الحرف من كلام الله تعالى لغو وعبث وباطل، ومعلوم أن هذا الكلام هو الباطل، ومتى قلنا إن هذا الحرف ليس بباطل صارت الجملة التي ذكرناها في غاية القوة والكمال "[54] .

وخرج الدكتور عبد الله دراز القول بعدم الزيادة بأن المعنى " نفي المكافئ وغيره، قال: لو قيل ليس مثله شيء لكان نفيًا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب إذ إن هذا المعنى الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه، وإذًا لدبَّت إلى النفس الوساوس والأوهام أن لعل هناك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية، ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء أو للكواكب وقوى الطبيعة أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في خلقه أو أمره... فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة، وما يدنو منها كأنه قيل: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلًا لله، فضلًا أن يكون في الحقيقة "[55] .

ويترجح عندي القول بعدم الزيادة في هذه الآية مع بقاء(مثل) على معنى التشبيه، مؤيدًا بتخريج الدكتور عبد الله دراز عدم الزيادة بأن المعنى نفي المكافئ وغيره؛وذلك لأن بعض العلماء يثبتون أن هناك فرقًا بين الكاف و(مثل) في المعنى؛ كما ذهب أبو هلال العسكري " لأن التشبيه بالكاف يفيد تشبيه الصفات بعضها ببعض وبالمثل يفيد تشبيه الذوات بعضها ببعض"[56]. ولكن الدكتور فاضل السامرائي رأى أن كلام أبي هلال ليس دقيقًا معللًا بأن: " التشبيه بمثل يكون في الذات والصفات فإنك تقول:(ليس مثل المتنبي شاعر) ولا شك أن كل الشعراء مثله في ذاته، وتقول: ليس كالمتنبي شاعر. والعرب تقول: هي مثل الشمس، ومثل البدر، ... ولا شك أن ذات الإنسان لا تماثل ذات الشمس، وإنما هو تشبيه بصفة الحسن والجمال، غير أن التشبيه بمثل أقرب من الكاف، فقولك:(هي مثل البدر) أقرب في الشبه من(هي كالبدر) لأنك في الأولى تدعي المماثلة، والمماثلة أقرب من عموم الشبه، وعلى هذا يمكن أن يقال إنه جاء بالكاف ومثل لنفي المماثلة والشبه كليهما ولو جاء بالكاف وحده لكان نفيًا للمشابهة فقط، ولو جاء بمثل لكان نفيًا للمماثلة فجاء بهما لنفي المشابهة القريبة والبعيدة " ثم عاد إلى

القول بعدم زيادة الكاف في قوله:(ليس كمثله شيء)، وأنها عنده على معناها وإيضاح ذلك عنده " أنك تقول:(هي مثل البدر) و(هي كمثل البدر) فقولك:(هي مثل البدر) أقرب في الشبه إلى البدر من(كمثل البدر) وذلك لمجيئك في الثانية بأداتي تشبيه: الكاف ومثل، وإذا حذفت أداة التشبيه كان التشبيه أقرب، فلو قلت(هي البدر) لكان أقرب كما هو معلوم لأنك تدعي أنها البدر وليست شبيهة به، فقولك:(هي البدر) أقرب في الشبه من(هي كالبدر أو مثل البدر) وقولك:(هي مثل البدر) أقرب إلى الشبه من قولك:(هي كمثل البدر) فإنك في الأخيرة أبعدت الشبه بذكر أداتين للتشبيه، فلو قال تعالى(ليس مثله شيء) لكان ينفي ذا الشبه القريب أو المثل القريب. ولكنه قال(ليس كمثله شيء) مريدًا بذلك نفي المشابهة ولو من وجه بعيد"[57] . وهذا المعنى الذي ذكروه يعد – فيما أرى – إحدى الغايتين من اجتماع الكاف ومثل في سياق النفي على ذلك النحو، أما الفائدة الثانية فصوتية مترتبة على الأولى، وداعمة لها وهي ما تستدعيه الكاف من جر المثل بالكسرة وما لهذه الحركة من قوة تجعلها أنسب لهذا السياق من باقي الحركات، لما فيها من الثقل المناسب لتأكيد النفي ؛ لأنها كما يقولون عنها علم الإضافة، وقد توسعوا في معنى المضاف إليه إذ جعلوه شاملًا المجرور بالحرف[58] كما قال ابن الحاجب: " والمجرور هو ما اشتمل على علم المضاف إليه، "[59]، وانما ناسب المضاف الكسرة ؛ لأن الإضافة كما يدل معناها اللغوي زيادة وثقل، وما ثقُل فقد انجر وانجذب، فيترتب على النطق بالكسرة " جر الفك إلى أسفل وخفضه... "[60] ولعلنا نجد في هذه الدلالة اللغوية على الجذب وما يستدعيه من الشدة والقوة الصوتية ما يوافق مقام التوكيد ويناسبه، فيحصل بذلك للكسرة فضل على باقي الحركات، في هذا المقام، ولو لم تدخل الكاف على(مثل)، لكان مفتوحًا على أنه خبر لـ(ليس)، ولفات بذلك هذا التأكيد الذي نجده في الكسر، ولعل هذا الغرض فيها بعضٌ مما قصده ونبّه إليه من ذهب في الكلام السابق إلى أن الغرض من الزيادة صوتي وأن حروف المعاني تزاد طلبًا للفصاحة، ولأجل تزيين اللفظ وجعله مهيّئًا لاستقامة وزن الشعر أو حسن السجع أو غير ذلك، فتجتمع بذلك في هذه الكاف فائدتان دلاليتان؛ توكيد الكلام باجتماع الكاف و مثل ليكون أبلغ ما يكون في نفي المماثلة أو الشبيه له سبحانه وتعالى كما ورد في بعض الآراء السابقة، والثانية: الأثر الصوتي، وهو ما تستدعيه الكاف من جر مدخولها ، وما يترتب على الكسر في تلك الصورة من ثقل صوتي يناسب ثقلها الدلالي وما له من تأثير يناسب سياق التوكيد وما يستدعيه من الشدة في سياق النفي دالًّا على الاستغراق التام الذي لا يقبل الاستثناء بأي وجه من الوجوه، والله أعلم.

– **وقوله تعالى: " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم "**[61]

هذه الآية من المواضع التي أوردها الشيخ عبد الخالق عضيمة مثالًا على زيادة الكاف، اعتمادًا على بعض آراء المعربين للقرآن[62]، غير أن المتتبع لآراء العلماء لا يجد في ترجيح بعض الوجوه على بعض ما يجده في الموضع السابق من الصعوبة، فقد جعل الزمخشري المثل هنا بمعنى الشأن والحال[63] ، وذكر أبو حيان جواز كونه بمعنى الصفة أيضًا، أي أن الله ضرب " المثل بآدم الذي استقر في الأذهان، وعلم أنه وجد من غير أب ولا أم، كذلك خلق عيسى بلا أب، ولا بد من مشاركة معنوية بين من ضرب به

المثل، ومن ضرب له المثل، من وجه واحد أو من وجوه لا يشترط الاشتراك في سائر الصفات. والمعنى الذي وقعت فيه المشاركة بين آدم وعيسى كون كل واحد منهما خلق من غير أب "[64] ، وجلّ اللغويين والمفسرين على هذا المعنى، وخالفهم أبو علي الفارسي " وقال: المثل بمعنى الصفة لا يمكن تصحيحه في اللغة، إنما المثل الشبه. ومن قال بهذا الرأي قال: جمع بين أداتي تشبيه على طريق التأكيد للشبه، وقال بعضهم: الكاف زائدة، وقال بعضهم مثل زائدة.[65] ، ولم أر في هذا الموضع ما يدعوني إلى توسيع المناقشة، فقد كان ما ذهب إليه جل العلماء من عدم الزيادة وكون المثل بمعنى الشأن أو الصفة واضحًا ومستقرًّا في ذهني منذ البداية؛ لأن المثُل بفتح الميم والثاء غير المِثل بكسر الميم وإسكان الثاء، والأمثلة على اجتماع المثل بفتح الميم والثاء مع الكاف كثيرة في القرآن ولم أر ما يدعوني إلى الذهاب إلى غيره، والله أعلم.

من الكلمات المهمة التي كثر مجيئها في القرآن الكريم، وقد كان لها دور مهم في تماسك النص وعقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط و لوجود الكاف، وهي للتشبيه، فيها، ظن كثير من العلماء أنها لا تكون إلا للتشبيه، ومضوا في كل آية وردت فيها هذه الكلمة يبينون التشبيه في الجملة، ويبحثون عن أركانه، غير أنهم وقفوا طويلًا أمام عدد من المواضع التي لا يبدو معنى التشبيه فيها واضحًا، فتنوعت فيها آراؤهم، حولها[66] كما يظهر من المواضع الآتية:

– **قوله تعالى: " كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ "[67]**

الإشارة بـ(ذلك) إلى قول اليهود والنصارى المفهوم من الكلام السابق، ومعنى الكاف التشبيه، أي: يشبه هذا القول قول فريق آخر غير الفريقين، وتقديم الجار والمجرور على متعلقة وهو(قال) ؛ أما لمجرد الاهتمام ببيان المماثلة، وإما ليغني عن حرف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام إيجازاً بديعاً؛ لأن مفاد حرف العطف التشريك، ومفاد كاف التشبيه التشريك، إذ التشبيه تشريك في الصفة، ولأجل الاهتمام أكد قوله(كذلك) بقوله(مثل قولهم)، ويجوز أن يكون قوله(مثل قولهم) تأكيدًا لـ قوله(كذلك)، وأن مرجع التشبيه إلى كيفية القول ومنهجه في صدوره عن هوى، ومرجع المماثلة إلى المماثلة في اللفظ، فيكون تكريراً في التشبيه من جهتين للدلالة على قوة التشابه.[68] ، وقد يقال: إن(كذلك) ليست للتشبيه هنا، بل لإفادة مجرد الثبوت لما بعدها[69] ، والدلالة على أنه أمر عظيم مقرر، وهذا الوجه فيها منقول عن الإمام الجرجاني – رحمه الله –، قال:(كذلك) تأتي للتثبيت إما لخبر مقدم، وإما لخبر متأخر، وهي نقيض(كلّا) لأن(كلا) تنفي، و(كذلك) تثبت.[70]

– **و قوله تعالى: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً "[71]**

الإشارة بـ(ذلك) قيل: إلى مفهوم من الكلام السابق، أي: مثلما جعلناكم مهديين، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل جعلناكم أمة وسطًا، وهذا يجعل الكاف باقية على معنى التشبيه، وقيل: الإشارة بـ(ذلك) إلى الجعل المدلول عليه بـ(جعلناكم)، أي: ذلك الجعل البديع جعلناكم لا جعلاً أدنى منه، والإشارة مأخوذة من كلام متأخر عن اسم الإشارة، وتأخير المشار إليه عن اسم الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق والتنبيه على أهمية المشار إليه، والكاف في مثل هذا التركيب، قيل: كالزائدة؛ لا تدل على تمثيل ولا تشبيه

في الواقع، ولكن المراد منها التنويه بالخبر، فيجعل كأنه مما يروم المتكلم أن يشبهه، ثم لا يجد إلا أن يشبهه بنفسه لغرابته، [72]

وقد يكون مقبولاً أن نقول إن الكاف في مثل هذا التركيب تفيد التشبيه، ولكن وجه الشبه بين ما قبلها وما بعدها أعم مما ذكر؛ وذلك أن المتكلم يقصد لفت انتباه مخاطَبيه إلى استمراره في سرد الأخبار المهمة التي ينبغي الالتفات إليها، وكأنه يقول: ومن الأمور التي تشبه ماذكر في أهميتها كذا وكذا...، فاختصر هذا القول بقوله:(كذلك) فيكون وجه الشبه على هذا التأويل هو أهمية الموضوع المطروح بحيث ينبغي الالتفات إليه – والله أعلم.

– **قوله تعالى:** " **قال ربِّ أنّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرٌ قال كذلك الله يفعل ما يشاء** "[73]

الإشارة بـ(ذلك) يحتمل أن تكون إلى مصدر مفهوم من الكلام السابق، أي: مثل ذلك الفعل العجيب يفعل الله ما يشاء، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى شأن الله، أي: ذلك الشأن العظيم شأن الله، فتكون الكاف مقحمه كالزائدة لتأكيد الفخامة المشعر بها اسم الإشارة[74]

وهذا الوجه ينطبق على هذا الموضع أكثر من انطباقه على سابقه، كما يبدو من سياق الآية؛ لأنها جاءت في إثبات أمر عظيم خارق للعادة – والله أعلم.

– **وقوله تعالى:** " **قالت أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيّا**[20] **قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيِّن ولنجعله آية للنَّاس ورحمة منَّا وكان أمرًا مقضيًّا** "[75]

و(كذلك) في هذا الموضع كما في سابقتها، و يلحظ فيها إلى جانب ماذكر في الموضع السابق أن دلالتها على التأكيد يدعمها ويدل عليها ما ذيلت به الآية من قوله تعالى : "وكان أمرًا مقضيًا" .

– **وقوله تعالى:** " **كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** "[76]

الإشارة بـ(ذلك) قيل: إلى أمر ذي القرنين المفهوم من الكلام السابق؛ تعظيمًا لأمره، أي: أمره عظيم كما وصفناه.[77]، والتشبيه هنا كما في قوله تعالى: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّة وَسَطاً"[78]، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حال القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي: في كونهم كفارًا، وفي تخييره إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال[79]، فتكون الإشارة لمجرد الاختصار والإحالة تجنبًا للتكرار، ويجوز أن يكون كلامًا مستأنفًا[80]، جلب للانتقال من كلام إلى كلام آخر، فيكون فصل خطاب، كما يقال: هذا الأمر كذا[81]، ويلحظ فيه –أيضًا– معنى الدلالة على الاستمرار.

ويستخلص من هذه المواضع أن(كذلك) في القرآن الكريم قد تكون دالة على التشبيه حقيقة، أي تشبيه شيء بشيء آخر، وقد تدل على تشبيه الشيء بنفسه لغرض التنويه به والتنبيه على أهميته، كما أنها تأتي للتوكيد ولمجرد تثبيت ما بعدها أو ما قبلها، أو أنها تكون معادلة لحروف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام آخر، كما تدل على الاستمرار بما تفيده من معنى التشبيه العام.

القسم الثاني- كاف الخطاب:

الخطاب أو المخاطبة من أشهر المعاني التي تدل عليها الكاف عند النحاة، وهذه الكاف قد تكون اسمًا وقد تكون حرفًا، أمّا الاسمية فهي ضمير متصل في محل نصب إذا اتصلت بالفعل نحو: حدثتك، وفي محل جر إذا اتصلت بالاسم أو بحرف الجر نحو: استلمت كتابك منك، ونحو: قوله تعالى: "ما ودعك ربك وما قلى "[82] ، وإذا وقعت الكاف بعد ما يتطلب مرفوعًا نحو: لولاك، أعربت ضميرًا مبنيًّا على الفتح في محل رفع مبتدأ، وقد ناب ضمير النصب عن ضمير الرفع، ونحو: عساك، أعربت(عسى) حرف رجاء مثل(لعل) معنًى وإعرابًا، تأخذ اسمًا وخبرًا، ويكون الضمير اسمها في محل رفع[83].

أما كونها حرف خطاب، فهي التي لا عمل لها ولا محل له من الإعراب، إلا أنها أبدًا تفتح للمذكر وتكسر للمؤنث، وتلحقها ميم التثنية وألفها وميم الجمع وواوها ونون جماعة المؤنث، كما يفصل بكاف الضمير، وهي أبدًا تكون بعد الكلمة، وتعد الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة من هذا النوع عند النحاة، قال المالقي: " فإذا قلت: ذاك، وذانك وذينك، وتيك، وتانك، وتينك، وأولئك فلا محل للكاف في ذلك كله من الإعراب، وإنما هي حرف دال على الخطاب كالتاء في أنت وأنتِ، وأنتما، وأنتن.

وتلحق -أيضًا- هذه الكاف في(هاءك) ممدودة، بمعنى(خذ) وحكمها معها في الحرفية وإلحاق الميم والألف والواو والنون حكم التي بعد أسماء الإشارة.

وتلحق -أيضًا- في قولهم(النجاءك) بمعنى انج، وحكمها حكم ما تقدم، ومن العرب من يفتح الكاف ويفردها بعد أسماء الإشارة سواء كان المخاطب مذكرًا أو مؤنثًا أو جمعًا أو تثنية أو جمعًا، والأول أكثر.

وإنما حكمنا على هذه الكاف بالحرفية وأنها لا موضع لها من الإعراب لكونها ليست صيغة ضمير مرفوع، وإنما هي صيغة ضمير منصوب كضربك، أو مخفوض كـ(مررت بك)، والنصب لا حظَّ له فيها بعد أسماء الإشارة ؛ لأنها ليست عوامل في المفعول به، وبعد(ها) ؛لأن مفعولها يأتي بعد ذلك، فتقول: هاك درهمًا ولا تحتاج إلى مفعولين، وإنما تتعدى إلى واحد لا غير، وبعد(النجاءك) ؛لأنها في معنى انجُ فهي لا تتعدّى.

ولا يصح الخفض في أسماء الإشارة بالإضافة ؛لأنها معارف بالإشارة، فبطل العمل جملة، فلم يكن لها محل من الإعراب فهي حرف.

وأما الكاف التي بعد الضمير في قولهم:(أرأيتك زيدًا ما صنع) فالمعنى: أرأيت زيدًا ما صنع، وفي قولك: لستك زيدًا، المعنى: لست زيدًا، الكاف في هاتين حرف خطاب -أيضًا- لا محل له من الإعراب، إذ لا يصح أن تكون صيغة الضمير المرفوع، ولا تكون في موضع نصب لأن منصوبي أرأيت بعد الكاف، وهما: زيدًا ما صنع، وخبر ليس أ-يضًا- بعدها وهو زيدًا.[84]

وتتفاوت هذه الاستعمالات من حيث ورودها في القرآن الكريم قلةً وكثرةً، ففي الوقت الذي لا نرى فيه استعمالًا للكاف في مثل(النجاءك) و(هاك) و(لستك) نرى قلة استعمالها في مثل(أرأيتك) بينما تكثر في أسماء الإشارة نحو ذلك وتلك..

أما أرأيتك فقد وردت في قوله تعالى: " قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيته إلا قليلا "[85] وأرأيتكم في قوله تعالى: " قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين "[86] ، وهذه الكاف عند البصريين تأكيد لمعنى الخطاب الذل تفيده تاء الخطاب التي في محل رفع، وهو يشبه التوكيد اللفظي. وقد قال الفراء الكاف ضمير نصب، والتركيب أرأيت نفسك، واختار هذا الرأي ابن عاشور فقال: " وهذا أقرب إلى للاستعمال، ويسوغه أن أفعال الظن والعلم قد تنصب على المفعولية ماهو ضمير فاعلها، أي: أرى نفسي[87]، وأميل إلى ترجيح هذا الرأي في مثل هذا التركيب وأراه سهلًا مقبولًا، ولا أجد فيه ما يدعو إلى الذهاب إلى غيره.

أما في أسماء الإشارة فزيادتها كثيرة، والعرب إذا أرادوا الإشارة إلى مفرد مذكر بعيد، أتوا باسم الإشارة(ذا) و زادوا عليه كافًا، فقالوا:(ذاك)، وقد تجتمع مع هاء التنبيه، فيقال:(هذاك) والأكثر عدم اجتماعهما، وتسبق الكافَ – كثيرًا – لامٌ تسمى:(لام البعد)، فيصير اللفظ بدخولها:(ذلك)، ويمتنع بزيادتها زيادة الهاء؛ لأن العرب تكره كثرة الزوائد، أو لأن اللام تدل على البعد والهاء تدل على القرب، فلا يجتمعان.[88]

ويرى بعض النحاة أن هناك فرقًا بين ما صحب الكاف واللام معًا، وما صحب الكاف وحدها، من حيث درجة التباعد، فتكون للإشارة – على رأيهم – ثلاث مراتب؛ قربى، ووسطى، وبعدى، فما تجرد من الكاف واللام، فهو للدرجة القربى، وما صحب الكاف وحدها للوسطى، وأما ما صحب الكاف واللام معًا فللدرجة البُعدى، ويرى بعض آخر أنه لا يوجد فرق بينهما، وأن زيادة اللام هي لغة الحجازيين في كل الأحوال، وبها نزل القرآن الكريم – وعدم زيادتها لغة التميميين، وعلى رأيهم هذا لا تكون للإشارة إلاّ درجتان؛ قربى، وبعدى.[89]

وقد شبّه النحاة[90] هذه الكاف الدالة على بعد المشار إليه بتاء(أنت) في دلالتها على أحوال المخاطب من حيث الإفراد، والتثنية، والجمع، والتذكير، والتأنيث، فيقال: ذلكَ، وذلكِ، وذلكما، وذلكم، وذلكن...، تدل في حرفيتها على ما تدل عليه في اسميتها، لو قيل: رأيتكَ، ورأيتكِ، ورأيتكما، ورأيتكم، ورأيتكن... وذكروا أن هذا التصرف التام هو اللغة الفاشية التي يقتضيها القياس، وأن الأخذ به هو الأحسن؛ لأنه يساعد على الإيضاح ومنع اللبس، وأقل منه فتحها في التذكير وكسرها في التأنيث، ولا تلحقها علامة تثنية ولا جمع، ويسمى بـ(التصرف الناقص)، ودون هذا أن تفتح مطلقًا، ولا تلحقها علامة تثنية ولا جمع فتبنى على الفتح في كل أحوال الخطاب، وذلك(عدم تصرفها). [91]

وكنت قد توقفت عند هذه الكاف في بحث سابق[92]، فرأيت أن هذا الاسم ورد في القرآن الكريم مبنيًّا على الفتح في خطاب الجماعة كثيرًا، وعللوا ذلك بأن "الجماعة تؤدي عن لفظها الجمع والفريق، فالخطاب في لفظ واحد، ومعنى جماعة"، [93] .

وبأن " الخطاب للنبي ﷺ أولكل سامع أو للقبيل، فلذلك أفرد.."[94] ، وبجواز "مخاطبة الجماعة على لفظ الجنس، إذ كان يجوز أن تخاطب واحدًا عن الجماعة فيكون الكلام له، والمعنى يرجع إليهم[95]

كل هذه الآراء سببها – كما يبدو – تمسّكهم بأن هذه الكاف خطاب، وأن الخطاب يجب أن تراعى فيه أحوال المخاطب، وهذا ما تحرر منه بعض المفسرين، مثل الطبري، والآلوسي، والشيخ محمد بن عاشور – رحمهم الله–.

فالطبري عند تفسيره لقوله – تعالى –: "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..."[96] قال: " إنه لكثرة جري ذلك على ألسن العرب في منطقها وكلامها حتى صارت الكاف التي هي كناية عن اسم المخاطب فيها كهيئة حرف من حروف الكلمة التي هي متصلة بها، وصارت الكلمة بها كقول القائل:(هذا)، كأنها ليس معها اسم مخاطب.[97] .

وقال الآلوسي في أحد رأييه: " إن الكاف تدل على خطاب قطع فيه النظر عن المخاطب وحدة وتذكيرا وغيرهما"[98]

وقال الشيخ محمد بن عاشور: " وافراد الكاف مع اسم الإشارة مع أن المخاطب جماعة رعيًا لتناسي أصل وضعها من الخطاب إلى ما استعملت فيه من معنى بُعد المشار إليه فقط، فإفرادها في أسماء الإشارة هو الأصل، وأما جمعها... فتجديد لأصل وضعها"[98].

ويفهم من هذا أن الكاف في حال الإفراد لا تدل إلا على بعد المشار إليه، ولا التفات فيها إلى أشخاص المخاطبين، قال الدكتور سعيد حسن بحيري: " إذا كان النظر إلى المخاطب أو المخاطبين الموجه إليهم الخطاب فتراعي المطابقة، واذا كان التركيز على الخطاب ذاته فتتوارى تلك المطابقة".[100] ومراعاة المطابقة في القرآن الكريم غالبًا ما تكون ملازمة لقرينة التشديد، أوتدعو إليها إرادة التوكيد، كما يتبين من المواضع الآتية:

قال – تعالى–: "وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ"[101] .

سؤال التقرير (ألم أنهكما ؟) موجَّه إلى سيدنا آدم وزوجه حواء – عليهما السلام – توبيخًا على نسيانهما العهد الذي أخذه الخالق عليهما.[102] ، ولذلك – ربما– ثنَّى الكاف في هذا السياق الاستفهامي؛ تأكيدًا على توجيه الخطاب إليهما معًا؛ لأن الاثنين أبعد عن النسيان من الواحد، فإذا نسي أحدهما ذكّره الآخر، فلم يعد النسيان عذرًا لا يعد لهما عذر والبراءة عنهما أبعد– والله أعلم.

وقال تعالى : "وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"[103]

قيل في بعض الآراء[104] : إن النداء يقع قبل دخولهم الجنة، والناس يكونون في الموقف بين الخوف والرجاء، لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها، ولعل في مجيء(تلكم)، يفهم منه معنى: كلكم، أو جميعكم أو نحو ذلك فيبعد بذلك ما قد يتبادر إلى بعضهم أنه قد يكون مستثنًى من دخولها.

وفي قوله تعالى:" قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ" [105]

خاطبت امرأة العزيز النسوة الحاضرات بقولها:(ذلكن) فجمعت كاف الخطاب مشددة عليهن بسبب ما وقع من لومهنّ لها.

وخلاصة القول: إنّ عدم تصرف الكاف شائع ومستقيم كشيوع تصرّفها، وليس أحد الاستعمالين بأحسن من الآخر، وإن الكاف في حالة عدم تصرفها لا يقصد منها إلا الدلالة على بعد المشار إليه من دون النظر إلى أشخاص المخاطبين، وإنها في حال تصرفها تفيد الخطاب بالإضافة إلى دلالتها على البعد – كما يفهم من الأقوال التي سبق ذكرها، وأقترح بناء عليه جواز تسميتها كاف البعيد تسهيلًا على الدارسين، لأنه كما يلاحظ عنها في استعمالاتنا اليومية وفي أغلب استعمالاتها في المؤلفات والكتب تأتي مجردة مما يدل على نوع المخاطب أو عدده، بينما تظهر فيها دلالة البعد واضحة جلية، بل إننا نلاحظ دلالتها عليه أكثر مما نلاحظ ذلك على اللام التي تأتي معها وخصوها بتلك التسمية، وذلك أسهل عندي من تسميتها كاف الخطاب ثم نجتهد في تفسير ذلك المعنى فيها كما فعل علماؤنا الأجلاء في تلك المواضع، والله أعلم.

الخاتمة:

تم البحث بعون الله تعالى، وهذه أهم النتائج التي أسفر عنها وبعض المقترحات والتوصيات:

– عرض البحث اختلاف بعض النحاة في اسمية كاف التشبيه أو حرفيتها وأدلتهم، واختار الذهاب إلى أنها حرف جر في أغلب الأحوال ورأى أن دخول حرف الجر عليها و ثبوت ذلك في الشعر ضرورة لا يقاس عليها، وأن ذلك الاستعمال لا يبعدها عن الحرفية، وأنها جاءت كذلك بعد حرف الجر حملًا على ما فيها من معنى الظروف، وقضية الحمل على المعنى شائعة ومقبولة في كثير من الاستعمالات في العربية، واقترح الباحث إعرابها في تلك الشواهد: حرف يفيد التشبيه مبني في محل جر حملًا على معناه ؛ لأننا نجد في ذلك وسيلة لتقليل الوجوه وبعدًا عن كثرة الاحتمالات في تصنيف الكلمة الواحدة وبخاصة في هذا العصر الذي تعالت فيه الادعاءات حول صعوبة النحو بكثرة احتمالاته وتعدد وجوهه.

– تبين أنه لم يتعين في المواضع التي ذكرها بعض النحاة دلالة الكاف على التعليل فقط، وأن معنى التشبيه كان حاضرًا فيها جميعًا، مع اختلاف بسيط بينها في ظهور أحد المعنيين على الآخر، كما يلاحظ – أيضًا– اقتران الكاف بـ(ما) فيها جميعًا، وقد ذكر ذلك بعض النحاة وجعله قيدًا لدلالة الكاف على التعليل وأظن بناءً عليه أنه قد يكون صوابًا لو تم تقييد ما أطلقه النحاة من قولهم بدلالة الكاف على التعليل، وجعله خاصًّا باتصال(ما) بها دالًّا– كما ذكر ابن عاشور– على التشبيه المجازي ؛ لأن إطلاق دلالتها على التعليل يجعلها مساوية للام التعليل في جميع الأحوال، ولا يخفى عدم استقامة ذلك. كما يلاحظ أن مجيئها يكثر في سياق الطلب، ولا أظن أنها خاصة به وأن مجيئها في غيره لا يستقيم، غير أن مجيئها في مثل هذا السياق يمنح الكلام قوة تجعل المتلقي أقرب للاستجابة بتنبيهه بهذه الطريقة على وجود دواعيها بعرضها في صورة أمور تستحق ردود أفعال مشابهة لها، والله أعلم.

– ذهب البحث إلى أنه في اجتماع الكاف ومثل في سياق النفي كما في قوله:(ليس كمثله شيء) فائدتان دلاليتان؛ الأولى: وقد ذكرها بعض العلماء، وهي توكيد

الكلام باجتماع الكاف و مثل ليكون أبلغ ما يكون في نفي المماثلة أو الشبيه له سبحانه وتعالى، والثانية: صوتية مترتبة على الأولى، وداعمة لها وهي ما تستدعيه الكاف من جر المثل بالكسرة وما لهذه الحركة من قوة تجعلها أنسب لهذا السياق من باقي الحركات، بما يترتب عليها في تلك الصورة من ثقل صوتي يناسب ثقلها الدلالي وما لها من تأثير صوتي يناسب سياق التوكيد وما يستدعيه من الشدة في سياق النفي دالًا على الاستغراق التام الذي لا يقبل الاستثناء بأي وجه من الوجوه، والله أعلم.

-(كذلك) في القرآن الكريم قد تكون دالة على التشبيه حقيقة، أي تشبيه شيء بشيء آخر، وقد تدل على تشبيه الشيء بنفسه لغرض التنويه به والتنبيه على أهميته، كما أنها تأتي للتوكيد ولمجرد تثبيت ما بعدها أو ما قبلها، أو أنها تكون معادلة لحروف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام آخر، كما تدل على الاستمرار بما تفيده من معنى التشبيه العام.

- يرى البحث جواز تسمية الكاف اللاحقة لأسمار الإشارة كاف البعيد تسهيلًا على الدارسين؛ لأنه كما يلاحظ عنها في استعمالاتنا اليومية وفي أغلب استعمالاتها في المؤلفات والكتب تأتي مجردة مما يدل على نوع المخاطب أو عدده، بينما تظهر فيها دلالة البعد واضحة جلية، بل إننا نلاحظ دلالتها عليه أكثر مما نلاحظ ذلك على اللام التي تأتي معها وخصوها بتلك التسمية، وأنها قد تدل على البعد من دون أن تقترن باللام في مثل(ذاك) و(ذانك) بينما لا نجد ذلك في اللام، وذلك أسهل عندي من تسميتها كاف الخطاب ثم نجتهد في تفسير ذلك المعنى فيها، والله أعلم.

- ويدعو البحث بعد تلك الملاحظات إلى الاهتمام بالدراسات السياقية النصية التي تهتم بدراسة النصوص دراسة مفصلة واسعة تتناول الجانب الدلالي في الدراسات النحوية حتى يتجاوز الضعف الذي لحقه بسبب فصله عن المعنى، وتكشف بذلك عن جمال هذه اللغة وأصالتها وأسرارها وروحها في اختيار ألفاضها ووضع حركاتها بحساب وبإيحاء إلى المعاني المختلفة، وحبذا أن تكون تلك الدراسات في السياق القرآني باعتباره المصدر الأول لهذه اللغة والحافظ لها على مر العصور والأزمان.

وما توفيق إلا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل

الهوامش:

(1) (تحت راية القرآن، ص 26)
(2) (شرح التسهيل المرادي ص715)
(3) (رصف المباني ص 195
(4) (مغني اللبيب ص 180)
(5) (ينظر: رصف المباني ص 195، وشرح الأشموني 296/2)
(6) (سر صناعة الإعراب 257/1)
(7) (المصدر نفسه 258/1)
(8) (ينظر: سر صناعة الإعراب 252/1)
(9) (ينظر: شرح الأشموني 296/2) ،
(10) (سورة الرحمن 24/55)
(11) (سورة الرحمن 37/55)
(12) (سورة البقرة 198/2)
(13) (سورة الشورى 11/42)
(14) (ينظر: الدر المصون 333/2) ،
(15) (ينظر: حروف التعليل في ضوء الأسلوب القرآني والاستعمال اللغوي ص2)
(17) (سورة البقرة 198/2) .
(18) (الكشاف، 247/1، و البحر المحيط298/2)
(19) (ينظر: زاد المسير 213/1، والبحر 298/2)
(20) (سورة البقرة 185/2) ....
(21) (ينظر الدر المصون 33/2)
(22) (معاني النحو ص 60) .
(23) (سورة البقرة 239/2
(24) (التحرير والتنوير 471/2) .
(25) (سورة البقرة 282/2)
(26) (التحرير والتنوير 103/3)
(27) (17الإسراء/24)
(28) (البحر المحيط 39/7)
(29) (التحرير والتنوير 73/15)
(30) (سورة القصص 77/28)
(31) (البحر 325/8)
(32) (سورة البقرة 151/2)
(33) (ينظر: التحرير والتنوير 48/2) .
(34) (سورة القصص 82/28)
(35) (مغني اللبيب 151)

(36) (زيادة حروف المعاني ص 16)
(37) (سورة آل عمران 159/3)
(38) (سورة المائدة 13/5)
(39) (الكشاف 474/1)
(40) (سورة الانعام 4/6)
(41) (البحر 436/4)
(42) (البحر 407/3)
(43) (ينظر: زيادة حروف المعاني في القرآن الكريم ص 15 وما بعدها)
(44) (المرجع نفسه ص 16) .
(45) (رصف المباني ص 197)
(46) المصدر نفسه ص 210)
(47) (سورة الشورى 11/42)
(48) (ينظر: سر صناعة الإعراب 267/1)
(49) (الدر المصون، 543/9)
(50) (التبيان في إعراب القرآن 1131/2)
.(51) (الكشاف 462/3)
(52) (سورة الرعد 35/13) ،
(53) (ينظر البحر 326/9)
(54) (مفاتيح الغيب 150/27) .
(55) (ينظر: النبأ العظيم، ص 132 وما بعدها) .
(56) الفروق في اللغة 149)
(57) (معاني النحو ص 61)
(58) (ينظر: إحياء النحو ص 72)
(59) (ينظر: شرح الرضي 201/2)
(60) (شرح الرضي 70/1)
(61) (آل عمران 59/3)
(62) (ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الأول 332/2)
(63) (الكشاف 433/1)
(64) (البحر المحيط 184/3)
(65) (المصدر نفسه والصفحة نفسها بتصرف)
(66) (من بلاغة القرآن، ص 212
(67) (البقرة 113/2)
(68) (ينظر:تفسير أبي السعود246/1، و التحرير والتنوير 677/1، 678)
(69) (ينظر: روح المعاني 3/2)
(70) (ينظر: المصدر نفسه 361/1) .
(71) (البقرة 143/2)

(72) ينظر: مفاتيح الغيب 88/4، و روح المعاني 403/1، والتحرير والتنوير 15/2 وما بعدها.
(73) (آل عمران 40/3)
(74) (ينظر: تفسير أبي السعود477/1، وروح المعاني 144/2) .
(75) (سورة مريم 22/19)
(76) (سورة الكهف 71/18)
(77) (ينظر: البحر المحيط 224/7) .
(78) (سور البقرة 143/2)
(79) (التحرير والتنوير 29/16، والبحر المحيط 224/7)
(80) (ينظر: المحرر الوجيز 399/9 والبحر المحيط 224/7)
(81) (التحرير والتنوير 29/16) ،
(82) (سورة الضحى 3/93)
(83) (المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ص 235) .
(84) (رصف المباني ص 207)
(85) (سورة الإسراء 62/17)
(86) (سورة الأنعام 40/6)
(87) (التحرير والتنوير 221/9)
(88) (ينظر: شرح التسهيل للمرادي(القسم النحوي) ص226، وشرح التسهيل لابن مالك 246/1.
(89) شرح التسهيل للمرادى، ص226، 227، وتوضيح المقاصد 409/1، وحاشية الصبان 215/1
(90) (ينظر: شرح التسهيل لابن مالك 264/1، وحاشية الصبان 215/1، وشرح الأشموني64/1.)
(91) ينظر: شرح المفصل 135/3 وحاشية الصبان 215/1، 216، وتوضيح المقاصد 411/1، والنحو الوافي 324/1.
(92) أسماء الإشارة في السياق القرآني ص 34
(93) معاني القرآن وإعرابه للزجاج 140/1، وينظر: أسرار العربية لابن الإنباري ص242
(94) ، البحر المحيط 408/2، وينظر: الدر المصون 461/2.
(95) (المقتضب 276/3، وينظر: شرح التسهيل(للمرادي) ، ص228.)
(96) (سورة البقرة 232/2)
(97) (تفسير الطبري 250/2، 251) .
(98) روح المعاني 154/2) .
(99) (تفسير التحرير والتنوير 428/2) .
(100) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص148
(101) سورة الأعراف 22/7) .

(102) (ينظر :المحرر الوجيز 464/5) ،
(103) (سورة الأعراف 43/7)
(104) ينظر: المحرر الوجيز 508/5، ومجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، 649/4، و البحر المحيط(54/5)
(105) (سورة يوسف 32/12) .